

## الحقيقة الشعبية دراسة في سيرة الظاهر بيبرس

د. شفيق طه النوباني\*

تتجاوز السيرة الشعبية في نظرتها إلى الكون والحياة مفهوم الرؤية لتصل إلى الحقيقة بكل ما فيها من يقينية مطلقة لا تحتل التشكيك، وبطبيعة الحال فإن للحقيقة الشعبية جوهرها ومفرداتها التي وإن التقت مع الحقيقة الفلسفية في مختلف الاتجاهات الفلسفية تبقى مستقلة تمتلك من الانسجام الداخلي ما يجعلها تمثل عالمًا متكاملًا لا يبدو فيه الإمعان في الخيال إنعامًا في تمثيل الحقيقة الشعبية من خلال المخيال الشعبي.

الفنون  
الشعبية

أبناء اللغة والثقافة التي انبثق منها السردو الشعرية .  
تقصيها من خلال عدد من المفردات

### الحقيقة التاريخية والحقيقة الشعبية:

تبدو سيرة الظاهر بيبرس أكثر السير الشعبية التصاقًا بالتاريخ بحكم تناولها شخصية تاريخية معاصرة لمرحلة تكوين السير الشعبية وتداولها، ومع ذلك لن نجد لها تسعي إلى التوثيق التاريخي أو حتى إلى صياغته صياغة جديدة تقدم من خلالها أحداثًا وتوخر أخرى أو تركز على موضوعات مختلفة عن تلك التي تركز عليها كتب المؤرخين؛

جاءت أدوات الراوي في السيرة الشعبية لتؤكد سعيها إلى طرح الحقيقة الشعبية، فالراوي هو راوٍ عليم يجتاز العالم كله بمشرقه ومغربه وشماله وجنوبه وما ندرکه فيزيائيًا وما لا ندرکه، لا تخفى عليه شاردة أو واردة مهما كانت طبيعة المكان الذي تتجه إليه عين الراوي، ولأشك في أن اتساع الحيز المكاني الذي يتناوله الراوي يؤدي دورًا مهمًا في إبراز سعي السيرة إلى إجلاء الحقيقة الكلية التي تفسر الظواهر في شتى المجالات والأمكنة على امتداد الزمن الذي تجري فيه أحداث السيرة.

وعادة ما تلجأ السيرة الشعبية إلى الفعل الماضي في السرد لتشير بذلك إلى الانقضاء التام للحدث بما يجعله ألق بالتحقق وعدم إمكانية تغيير مجرياته، فالراوي ليس إلا مخبرًا بالأحداث، وصيغة الفعل هذه تتلازم مع تفاصيل الأحداث لتشير إلى دقة نقلها: "فغضب النسرو سار حتى أتى قلعتهم فسلمت عليه رجاله ثم نظر إلى باب قلعتهم فرأى مكتوبًا عليه اسم جمال الدين سلطان القلاع والحصون فقال ومن جعله سلطانا علينا قالوا له الملك الظاهر قال هذا معزول قالوا افعل ما بدا لك" (1).

ومع أن الدراسات السردية تشير إلى هذه الخصائص السردية بوصفها مظاهر مفهوم "الإيهام بالواقعية" إلا أنها تتخذ في جنس السيرة الشعبية بعد الحقيقة، فالسيرة موجهة في خطابها إلى الناس جميعهم من

\* ناقد اردني



زواجهما الذي كان سياسياً بامتياز. تشير القصة التاريخية إلى أن شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب تولت السلطنة بعد موت زوجها، وبعد رفض الخليفة العباسي الاعتراف بالسلطنة الجديدة، ورفض الشارع المصري تولي امرأة للسلطة، تزوجت من عز الدين أيوب وتنازلت له عن السلطنة، غير أن تعاونها مع المماليك البحرية وسعي أيوب إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبي أدت إلى اغتيالها لزوجها الذي انتقم مماليكه له بقتلها (2). يحصل أيوب على السلطنة في السيرة الشعبية من خلال القرعة بعد تنازل شجرة الدر عن العرش إثر اعتراض شريف مكة على توليها السلطنة، ويتزوج من شجرة الدر، غير أنه بعد الزواج يعيش فتاة بدوية يتزوجها ويبنى لها قصرًا يسميه قصر البدوية ليقيم فيه مدة معتزلاً بالحكم، وهذا ما يؤدي إلى انتقام شجر الدر منه بقتله، أما ابنه أحمد فقد لحق شجر الدر بعد قتلها أباه فزلت قدمها في أعلى السرايا لتقع على رأسها وتموت (3). لقد ركزت السيرة على قصة شجر الدر وأيوب، فأخرجتها من تلك الملامح السياسية التي بدت واضحة في نسختها التاريخية، لتقوم على حافز أساسي يتمثل في غير شجر الدر على زوجها، ولعل هذا العامل المتمثل بالغيرة لا يمثل الحقيقة الشعبية حسب، بل يمثل حقيقة ما حصل في علاقة شجر الدر بأيوب.



بل إن السيرة الشعبية تصوغ أفكار الشعب وأماله وطموحاته بعيداً عن أحداث التاريخ، فلا تنقل التاريخ إلا إذا أدى ما تسعى إليه السيرة الشعبية نفسها دون أن تحترز في ذلك أي احتراز سوى انصهار ذلك الحدث في الحقيقة الشعبية التي تقوم عليها السيرة وتسعى إلى إيصالها في الوقت نفسه، وإذا كنا نجد شخصيات تاريخية معروفة في سيرة الظاهر بيبرس، فإننا لن نعثر على شخصية تاريخية واحدة في سير أخرى، كما هو الحال في سيرة "حمزة البهلوان"، ما يؤكد عدم سعي السيرة إلى تقديم أحداث التاريخ.

على أن ابتعاد السيرة عن تقديم الحدث التاريخي لا ينفي تأثيرها الكبير بالظروف التاريخية التي كانت سائدة في مرحلة تكونها بعامة فالسيرة الشعبية تقدم للمتلقي في طياتها تلك الخطوط العريضة التي تجد أساسها واضحاً في التاريخ وأدت الدور الأهم في صياغة الوعي الشعبي، فصدى الحملات الصليبية والغزو المغولي واضح في سيرة الظاهر بيبرس، حيث يظهر التعامل مع العالم بوصفه مكوناً من المسلمين والكفار الذين يحاولون دائماً النيل من دولة الإسلام وهدمها. وإن كانت شخصية الظاهر بيبرس ودولة المماليك بكليتها قد حققت شرعيتها التاريخية من خلال مواجهة الغزاة فإن الشرعية الشعبية للبطل الشعبي تحققت بالطريقة نفسها في السيرة الشعبية أيضاً.

إن تناول سيرة الظاهر بيبرس لشخصية قريبة من زمن تكون السيرة الشعبية يجعلنا أمام مادة خصبة يمكن من خلالها التوصل إلى العديد من مضردات الحقيقة الشعبية، حيث ستبقى المادة التاريخية خلفية يمكن التوصل من خلالها إلى مفاصل التفكير الشعبي.

## ٢. الحقيقة الشعبية والتبسيط

يتجه التفكير الشعبي إلى تبسيط الأفكار والظواهر المتنوعة، فلا يبدو في السيرة الشعبية سعي إلى التعمق في التفسير والتأويل للحدث، وإن بدا مثل هذا التوجه في التفكير مجانباً للحقيقة للوهلة الأولى إلا أنه ربما جعلنا ماثلين أمام جوهر الحقيقة دون تزويق أو تجميل، ومن أمثلة هذا التبسيط تناول حادثة مقتل أيوب وشجر الدر بعد

### ٣. القيادة الحقّة في المفهوم الشعبيّ

على الرغم من عدم سعي السيرة الشعبيّة إلى توثيق الحدث التاريخي في مرحلة تكوّنها إلا أننا لا نستطيع أن نعزلها عن الشعور الجمعي للشعب الذي تناقل هذه السير وأسهم في صياغتها عبر سني تناقل السيرة، ولا شك في أنّ شخصيّة الظاهر بيبرس قد وجدت شعبية كبيرة أهلتها لأن تحظى باهتمام شعبي لم يحظ به قائد آخر، على أن من الضروري في هذا السياق الإشارة إلى أنّ شخصيّة بيبرس التاريخيّة لم تكن أكثر من موح بهذه السيرة التي لم تسع إلى سرد سيرة الشخصيّة التاريخيّة بقدر ما سعت إلى سرد سيرة القائد المثال في ذهن الشعبيّ.

لم تتجه سيرة الظاهر إلى تتبّع المراحل التي مرّت بها شخصيّة بيبرس منذ طفولته، فأول ظهور لشخصيّة البطل جاء من خلال عثور تاجر الرقيق علي بن الوراق على مواصفات المملوك الذي طلبه منه الملك الصالح: "فقال اعلم أنّي طالب منك حاجة أخرى، وذلك مملوكاً خاصاً لنفسي يكون فيه الشروط التي أذكرها لك: أنه يكون فهمياً وقوياً وفطياً ويحفظ القرآن ويكون في وجهه حسن واسمه محمود ويكون له سبع جذريات في وجهه وشعرة الأسد بين عينيه" (4)، وقد عثر الوراق على هذه المواصفات في مملوك اسمه محمود، فاشتراه ونوى أخذه معه إلى مصر غير أنّ ديونه الكثيرة جعلت عبده الأقواسي أحد دائنيه يأخذه بدل دينه ويحتجزه في الشام ليخوض العديد من المغامرات التي يثبت من خلالها فروسيته، ويذهب بعد ذلك إلى مصر (5) تدرّج بيبرس في مناصب الدولة ابتداء من رئيس الدرك إلى كرسي السلطنة، وقد سمحت طبيعة المناصب التي تقلدها بإجراء تغييرات تمس حياة الناس بصورة مباشرة، فمن منصب رئيس الدرك إلى منصب والي مصر إلى والي الجيزة وغيرها الكثير، حيث كان يقضي على الفساد في كل مدينة يديرها.

لقد اتجه رسم الصورة المثاليّة لشخصيّة القائد بالظاهر بيبرس إلى هذه المناصب التي أبرزت أثره الإصلاحيّ على أرض الواقع، حيث استطاع الظاهر بيبرس اجتثاث رؤوس الفساد المتحالفة مع السلطنة: "في ستون سنة أقطع الطريق وأخون الرقيق ولا أعرف عهداً ولا موثيق وكل الطوائف تحت يدي وكلّ والٍ أتى يوافقني وما عصى أمري غيرك" (6). وما كانت هذه المثاليّة لتتحقق في شخصيّة الظاهر لولا القوة الخارقة التي تمتع بها، فضلاً عن

فروسيته التي جعلته قادراً على مواجهة أعداد كبيرة من الجنود وصلت حد مواجهة جيش كامل بمفرده (7) استطاع أن يشكّل عصابة كبيرة من الرجال الذين يعملون تحت إمرته، وقد دخل هؤلاء في طاعة بيبرس من خلال سلسلة أحداث تتكرر مع غير شخصيّة، إذ تبدي هذه الشخصيّة غروراً أمام بيبرس يجعلها تعتقد أنّها قادرة على التفوق عليه، وحين تحصل المواجهة يتمكن بيبرس من الشخصيّة، ثم يعفو عنها ويعتقها، فتختار أن تدخل في طاعته.

وقد تكرر هذا التسلسل للأحداث كثيراً مع شخصيّة جمال الدين شيحة الذي شكّل نموذجاً آخر للقيادة لا يعتمد على القوّة الجسديّة بقدر ما يعتمد على القدرات العقليّة ومهارات الحيلة والتنكر، إذ استطاع نمط الشخصيّة هذا التفوق على النمط الذي يعتمد القوّة الجسديّة في العديد من المواقف، وإن لم يبد في السيرة صراع مباشر بين المقدم معروف وجمال الدين شيحة فإنّ في حيكته محاولة واضحة لانتزاع الاعتراف لجمال الدين شيحة بأحقية القيادة بما يمتلكه من سمات؛ فقد اعترف معروف لشيحة بالمنصب كما اعترف الكثيرون ممن عارضوا توليه ذلك المنصب (8).

إن سمة التسامح التي تبرز في المواقف التي تظهر فيها قوة القائد البطل تجعله يمتلك الشخصيات الأخرى، فيجعلها تحت سيادته شبه المطلقة، فهو من منحه الحياة من جديد بعد أن كان على حافة الموت،







وقد أرسل أبوه الملك له رسالة طلب منه فيها أن يؤكد له صلته به وبأمه، فسافر ببيبرس إليه وأقام عنده مدة (10).

لم تتقبل الحقيقة الشعبية ملكاً بهذه الصفات دون أن يكون من أسرة ملوك، فالذهن الشعبي لم يقبل أن يחדش القائد البطل من خلال أصله ونسله، فأتى بأصول قطز (11) القائد الذي ذكرته السيرة بصورة عابرة وألبسها للقائد المثال المتمثل بالظاهر ببيبرس.

#### 4. القدر

يعد القدر واحداً من أهم مفردات الحقيقة الشعبية، ليس في سيرة الظاهر ببيبرس حسب، وإنما في السير الشعبية جميعها، وقد برز الإيمان بالقدر بوضوح في سيرة الظاهر ببيبرس من خلال مواقف عديدة لعل من أكثرها إجلالاً لحتمية القدر في المعتقد الشعبي موقف مقتل عرنوس الذي رآه ببيبرس في المنام وقد نبتت له أجنحة يريد الطيران بها، وحين حبسه ببيبرس في قفص جاءت إليه طيور سود وقتلته، وقد تحققت هذا الحلم حين هاجم رومان الأزرق حلب، فتحمس عرنوس للقاء رومان، وعلى الرغم من محاولات ببيبرس العديدة لمنع عرنوس من دخول الحرب بحبسه في مصر ثم إبعاده عن المعركة في حلب إلا أنه بقي مصمماً على دخول المعركة، وقد استطاع أن يقتل العديد من مقاتلي الأعداء، فخاف عليه ببيبرس بحكم محبته له بعد أن رآه في ذلك الحلم، فاقترح شيحة أن يقيدته في الصيوان ريثما تنتهي الحرب.

والحقيقة أن هذا الأسلوب في منح البطل الشعبي نضوياً أوسع لا يقتصر على سيرة الظاهر ببيبرس بل يمتد إلى السير الشعبية جميعها.

حقق الظاهر ببيبرس الاستقرار الداخلي في عدد من المدن بقضائه على الفساد الذي تبدى من خلال السرقة وقطع الطريق، وبعد أن تولى السلطة استطاع أن يحقق انتصارات متوالية اعتمد فيها على أبطال وقادة لا يقلون عنه في قدراتهم، وهذا ما جعل البطل الرئيسي في هذه السيرة لا يأخذ على عاتقه التصدر للمعارك دائماً، كما هو الحال في باقي السير الشعبية، فهو الملك الذي يحافظ الآخرون على بقائه، بل إن الناظر في السيرة سيجد أن دور البطل الشعبي الخارق للعادة كاد أن يزول عن الظاهر ببيبرس ليطلع به القادة الآخرون من مثل جمال الدين شيحة وإبراهيم الحوراني ومعروف وابنه عرنوس وأبطال الفداوية الإسماعيليون، بل إن ببيبرس يتعرض للعديد من المواقف التي لا يبدو من خلالها ذلك الفارس الذي اعتدنا أن نراه في السير الشعبية، ومن ذلك ما حصل له مع منصور المتمرّد الذي سرق فرسه، واستطاع جمال الدين شيحة أن يقبض عليه بحيلة ويدخله في طاعته (9). كثيراً ما يتعرض أبطال السير الشعبية إلى أزمات يقتربون فيها من الموت، ثم ينقذهم أبطال آخرون، غير أن ذلك لا يبعدهم عن الدور البطولي المتمثل بالفروسية، فالبطل الشعبي هو الذي يتصدّر فعل التصدي للأعداء، غير أننا في سيرة الظاهر ببيبرس نتعامل مع ملك منقذ ومخلص للناس، ليس من خلال قوته الجسدية التي استطاع أن يثبتها منذ بداية السيرة وإنما من خلال سعيه إلى تحقيق آمال الناس بعيش كريم وإحساس عميق بالنصر والتفوق. ولعل هذا ما جعل السيرة تجري هذا التحول في شخصية ببيبرس، فهو القائد الذي يسعى الناس إلى الحفاظ عليه والتمسك به بوصفه المنقذ والمخلص.

وعلى الرغم من أن القائد المثالي في ذهن الشعبي اتخذ صورته المثالية هذه من خلال فروسيته وسعيه إلى إقامة مجتمع صالح خال من الفساد وإلى تحقيق النصر إلا أن ذلك غير كاف وفق الحقيقة الشعبية، بل ينبغي لمثل هذا القائد أن يكون من نسل ملوك، وقد تبين أن الظاهر ببيبرس ابن ملك، ولكن الزمن جار عليه مدة فصار مملوكاً.

هؤلاء الأبطال الذين حرروا قاندهم المثال الظاهر بيبرس الذي خطفه غرطال وألبسه ثوب القنفذ وسجنه، فاكتمال أشكال المواجهة يعني اكتمال فكرة البطولة التي سخرت للحفاظ على البلاد وعلى القائد المثال الذي قاد البلاد نحو الحالة المثالية.

\*\*\*

لقد رسم الشعب من خلال السيرة الشعبية الحقيقية التي يؤمن بها إيماناً مطلقاً، والمتمعن في مفردات الحقيقة الشعبية والمادة السرديّة التي قدّمت هذه المفردات سيجد أن تحقيق التسلية لم ينفذ إيمان العقل الشعبي بكل تلك المفردات التي مثلت الحقيقة.

وحيث عرف الأعداء بوجود عرنوس في الصيوان هاجمته قوة منهم استطاعت قتله وهو مقيد بالسلاسل (12).

لقد لاحق القدر عرنوساً على الرغم من المحاولات العديدة لإبعاده عنه، والناظر في حكاية عرنوس لن يحتاج إلى اجتهاد كبير ليعرف أن السيرة سعت إلى إبراز مفردة القدر بوصفها واحدة من مفردات الحقيقة الشعبية التي تلقي بظلالها على أحداث السيرة الشعبية بما في هذه السيرة من انعكاس للفهم الشعبي اليقيني للعالم.

## ٥. الفيبات

لا تخلو سيرة من السير الشعبية من حكايات الجنّ والسحر وأثرها على الشخصيات، والحقيقة أن الاتساع في مثل هذه الحكايات من خلال الخيال الشعبي الواسع لا يشير إلى ابتعادها عن الحقيقة، بل يمثّل إنعاشاً في تصويرها، فالجنّ والسحر والقدرات الخارقة مفردات تؤمن بها العقلية الشعبية إيماناً لا يحتمل الشك، ولن ينقض الخيال الواسع في هذه الحكايات ذلك الإيمان.

لا تختلف سيرة الظاهر بيبرس عن بقية السير في هذا المجال، إذ نجد الأبطال يواجهون شخصيات ذات قدرات خارقة، فلا يتمكنون من مواجهة هذه الشخصيات إلا بقدرات من النوع نفسه في الأغلب، كما هو حال "أيدمر" الذي تحصّن ضد السحر في مواجهته لميمونة قائدة جيش الحبشة، غير أن ما يلفت الانتباه في سيرة الظاهر بيبرس خاصة أن مواجهة قوى السحر والجنّ تركزت في الاتجاه الجنوبي الإفريقي، حيث حصلت حرب كبيرة في السودان والحبشة كان السحر فيها أداة الأعداء الأولى، أما الشمال فلم يكن السحر فيه ظاهرة ملحوظة، ولعل ذلك نابع من تأثر السيرة بالظروف التاريخية التي نشأت فيها، حيث كانت المواجهات الحربية مع الصليبيين والتتار تتركز في الشمال.

إن قصر معارك بيبرس على مناطق الشمال التي واجه من خلالها العدوان على الأراضي العربية الإسلامية لن تكفي لرسم صورة الأبطال الخارقين الذين يدافعون عن هذه الأراضي، مما جعل وقوف هؤلاء في وجه قوى السحر ضرورياً لاكتمال صورة

## الهوامش

- 1- الملك الظاهر بيبرس، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 69-70.
- 2- قاسم، قاسم عبده، علي، علي السيد، الأيوبيون والمماليك؛ التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ص ص 129-132.
- 3- الملك الظاهر بيبرس، ص ص 145-148.
- 4- المصدر نفسه، ص 35.
- 5- انظر: المصدر نفسه، ص ص 37-41.
- 6- المصدر نفسه، ص 102.
- 7- انظر: المصدر نفسه، ص 51.
- 8- انظر: المصدر نفسه، ص 233. وتنطوي معركة شيحة لانتزاع الاعتراف به سلطاناً للقلاع والحصون على صراع خفي مع الفرقة الإسماعيلية، فشيحة الذي وثي سلطاناً للقلاع والحصون ليس إسماعيلياً في حين أن الفداوية الذين يعملون في القلاع إسماعيليون، والأغلب أن السيرة تتعامل مع الإسماعيلية بوصفهم عشيرة.
- 9- انظر: المصدر نفسه، ص ص 241-243.
- 10- انظر: المصدر نفسه، ص ص 204-205.
- 11- تذكر كتب التاريخ أن قطز هو الذي ينتسب إلى بيت جلال الدين سلطان خوارزم الذي قضى التتار على مملكته، ويقال إن قطز ابن أخت الملك. انظر: قاسم عبد قاسم وعلي السيد علي، السابق، ص 138.
- 12- انظر: الملك الظاهر بيبرس، ص ص 310-317.
- 13- انظر: المصدر نفسه، ص 291.
- 14- انظر: المصدر نفسه، ص ص 298-301.